هذا هو الفن المتحضر المهذب يدخل على القارىء بما يسوء من الأبواب الخلفية ، ويسره دون أن يضطره إلى الضحك العالى . وهو حين يسوؤه يضطره الى الابتسام ، وحين يهدى اليه الرضا والبسمة يغريه بشىء من التراجع والاحتياط .

فن النثر الذى ابتدعه المازنى كان ثمرة الثقافة الإنجليزية بوجه خاص ، ولاشك أنه أفاد من اللغة الإنجليزية الاحتياط ، والعبارات المستورة ـ والظنون غير المدمرة ، والقدرة على مخاطبة عقول وطبائع مختلفة المستوى فى الصقل والتهذيب .

كان المازنى آية الإحساس الراقى لأنه لايتحدث عن مبادىء أخلاقية صريحة . ولايعظ ولا يتحيز ولا يدعو ولا يجهر ، ولكنه يعرف كيف ينسج العبارة التى تؤدى ماتعجز عنه هذه المواهب البلاغية . ومن ثم استطاع المازنى بثورته اللغوية أن يعدل الحساسية العامة ، وأن يعطى القارىء ما يحتاج اليه من صفو وود لايشوبه كدر عظيم .

وكثير من الكتاب كان مخلصا فيما يتحدث عنه . ولكنه يعجز عن خلق هذا الاتجاه الى القراء . كثير من الكتاب عناهم الموضوع أكثر مما عناهم القارىء . ولكن المازنى عرف أن الصلة الشخصية هى عنوان التهذيب الذى يجب أن يدعمه الفن . ولم تكن هذه الصلة سطحية ، ففيها صعود وهبوط ، ولكن سمتها الكبرى هى الاستواء والسلام .

هذا هو فن النثر عند المازنى يعتمد على بناء تجربة مع إنسان . ومعنى التجربة الدقيق كان حاضرا على الدوام فى ذهنه . يجرب الفكرة ، ويجرب الشعور ، ويجرب العلاقة بالقارىء . ومن أجل ذلك جعل المازنى الكتابة طريقا الى خلق صداقة مع قارىء مجهول . كان همه أن يجعلنا مثقفين . نصادق كل شىء ، وكل تجربة ، وكل شخصية .

كان المازنى يعرف الصعوبات التى تعترض الفن . تثقف وعرف أن كثيرا من القراء لاينظرون ولايقدرون على النحو الذى يريد . ولكن المازنى حذق فن إخفاء التعليم ، وعرف أن خلق موقف مهذب ودود مخالف غاية يشارك فى بنائها .

كان المازنى يريد القارىء أن يخرج عن صمته وأن يتحدث . وكان يعرف أن الصمت ضياع وتشتيت . كان يحيى فى النفس الرغبة فى الحديث والاستماع . بعض الكتاب يحدثك دون أن يستمع إليك . وبعض الكتاب يستمع إليك ولا يبالى بك .